الفزاعة

عبد السلام السيّدي

بدت البيوت الطينيّة الواطئة ترزح تحت وطأة القائلة. . أقفرت الدروبُ من المارّة. الرمضاء طردت النّاس إلى حيث الظلال. . لم يعد ثمّة من يجوب الدروب. . الأشجار والجدران وكائنات الطريق بقيت وحدها مصلوبةً تحت قذائف اللهَب. تهدّلت أسلاك الهاتف الممتدّة على جانبي الطريق، وانصهر الاسفلت نافثاً أبخرتَه المشبعة برائحة خانقة. . وبين الفينة والفينة تمرق شاحنةٌ سرعان ما تختفي في البعيد تاركةً آثار دواليبها مرسومةً على القطران. . كانت المغامرة بالخروج في هذا القيظ البغيض ضرباً من الجنون. . ومن الحقول الممتدّة على جانبي الطريق لوّحت أشجارُ الزيتون بخضرتها الغامقة. . هناك تمتدّ الظلالُ حنونةً تزيح عن القلب ما تراكم من أحزان، حيث المياهُ المنسربة عبر الساقية، وأشجار الفاكهة المثقلة بالثمار. . ترى ثمار الرُّمان متدلّية تُغري بالقطاف، وتلك الأزهار الناريّة الجميلة. . وتجيء ثلّةٌ من الصبية الأشقياء يتراكضون عبر أزقّة الحيّ ذي البيوت الطينيّة المسيَّجة بالوشائع من شجيرات اللّبلاب ذات الأزهار القمحيّة الزرقاء. . ثمّة قوّة شيطانيّة عاتية تدفعهم إلى اللعب في هذا الجوّ المسكون بالشمس. . يتقاذفون بالطوب والحجارة والشتائم البذيئة مرسلين من حينٍ لآخر عواءً شبيهاً بعواء الذئاب. . ينحدرون صوب الطريق العمومي ميمّمين نحو أحد الحقول لسرقة ثمار الرُّمان، تاركين وراءهم بيوتهم البائسة المطوّقة بأكوام القمامة والأشواك. . كان يتقدّمهم فتى أسود بدين أشعث الشّعر، يرتدي جلباباً طويلاً تحوّل بياضه إلى لون الرماد. . تضرب أرجلهم الرمال الساخنة مثيرةً سحباً من الغبار. . اجتازوا الطريق الأسفلتيّ المنصهر وانحدروا في درب مترب تمتدّ فوقه الظلال والأوراق اليابسة. . يشتدّ العدْو ويعلو وجيفُ القلوب. ومن فتحة في السياج مرقوا للداخل، رأوا نباتات البرسيم متماوجة بحركة النسيم، أخذوا يخوضونها متّجهين صوب شجيرات الرُّمان. . ألقى أكبرهم نظرةً في البعيد، ارتدّ طرفهُ وهتف بصوتٍ أبحّ: «ثمّة من يراقبنا هناك. . حذارِ قد يكون الناطور»!. . وضع الصبيُّ الأسود يدهَ على جبينه كمظلّة

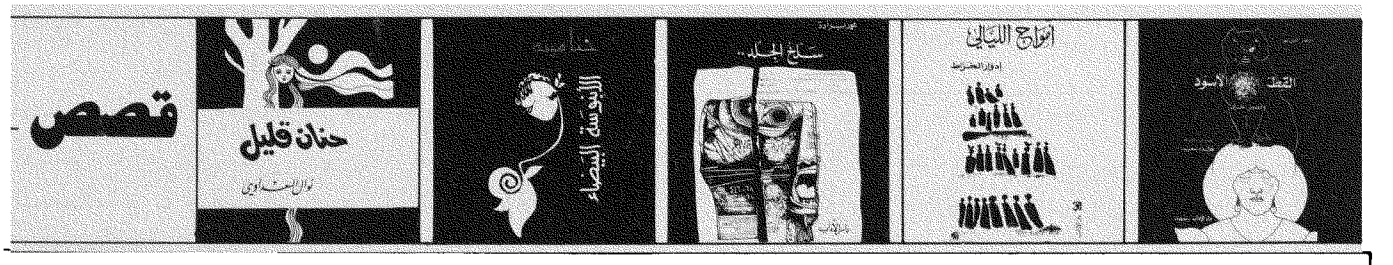

مشهد

بثينة سليمان

المكان: حجرةٌ تعجُّ بأشياء قديمة، صوفا، طاولة صغيرة، أزهار اصطناعيّة، ستارة مخمليّة، نافذة تطلّ على الفراغ. وإلى الحائط المجاور صورةٌ لامرأةٍ متّشحةٍ برداء أحمر ترتسم على شفتيها ابتسامةٌ باهتة.

الضّوء خافت يتسلّل من الحنايا، يضفي شحوباً على تراكم الأشياء، تشوبه ظلالٌ هامدَة لامرأة عارية ورجل.

تُطلُّ المرأة برأسها عبر النّافذة، يداهمها الفراغُ ولونُ البحر الأسود. تتراجع للظلمة فزعةً، والحيوانات المطّاطيّة تقفز فوق عشب الرّصيف تلتهم زبَد العتمة.

تتمطّى الكلماتُ داخل فمها لتتردّى في حجرة الصّمت. صدى ضحكات كانت تتردّد في الحنايا. يكاد الصّوتُ ينعدم وهذا الفراغ ليومين خَلَوَا. كانت تصغي للّحنِ الجنائزيّ، تروي بجسدها نصَّها الأبدي. فقاعة صابون. تنزلق فوق هامتها خيوطُ اللّزوجة. شرنقة ربيعيّة طال الشّتاء على بلوغها.

بات عليها أن تتبع العينَ حين تكلّمه. تستند إلى النّافذة بجسمها النّحيل، وجهها يثرثر بالخوف. والرّجل إلى مقعده يتكوّم فوق وهج سنوات موته. عيناه تضيقان بالرتابة. يمسّد شعرةَ البنّيّ المنحسر فوق جبهته. بدت عيناه أكثرَ بروزاً وحاجباه امتدّا طويلاً.

ترمقه بنظرة خاطفة لتنكسر العينُ وهي تحاول مراقبة الخارج ثانيةً. هذا المساء المشبع بروائح الموت وأصوات المركبات القارّية تتداخل. همهمة القادمين عبر الكواكب تختصر بصخبها عجزَ المكان، تغمره حركةُ الخارج وسط غياب اللّون، والسّواد يتلف نضرة الحياة.

ـ انظر المدينة، لا أرى غيرَ الاسمنت الأسود يزحف ليغطّي مساحات الهواء.

ـ هاتي يدك.

تسحب يدها للخلف، تكتفي بإشارة لامبالية. . القدمان

ونطر مليّاً حيث أشار رفيقه، ثمّ قال: «لا أحد هناك.. إنّها فزاعة الطيور».. قال آخر بلهجة ساخرة: «ناطور هذا الحقل رجلٌ أبلهُ كسول، قد تراه يغطّ في النوم هناك في العرزال».. قال الصبيُّ الأسود: «هيّا نقطف ثمار الرُّمان، لا تضيّعوا الوقت»..

تناثروا حول أشجار الرُّمان يقطفون ثمارها الناضجة، وعندما امتلأت أيديهم وحجورهم قفلوا راجعين عبر الدرب الّذي جاءوا منه منذ حين.. اجتازوا الطريق، ثمّ مضوْا إلى زيتونة كبيرة منتصبة حدَّ صنبور المياه العمومي. افترشوا التراب، وشرعوا يقفزون الثمارَ ويتصاحكون بمرح، وقبالتهم بدا المستنقع بأعشابه الخضراء وأشجار النخيل المغمورة في المياه الآسنة، وفي طرفٍ قصيّ بدت أشجار الصبّار الشائكة، وثمّة تينة ذاتُ أعواد يابسة.. عبق الجوّ بروائح المستقع الفاغمة، وتعالى نقيقُ الضفادع الرتيب..

انتصب الصبيُّ الأسود وطفق يمسح راحتيه في طرف قميصه من ذلك السائل الأصفر الذي تركته قشورُ الرُّمّان، ثمَّ مضى إلى صنبور المياه ليرتوي، فوجد عنده امرأة شابّة بصحبة طفلها الصغير، وقف ينتظر، لكن المرأة أشارت إليه بأن يرتوي من إحدى الجرار الملأى. انحنى يرفع جرّة صغيرة إلى فمه.. تأمّلته وهو يرتوي، وسال الماء على عنقه وصدره. وضع الجرّة على التراب الطري، وقبل أن ينصرف ناول الصغير رمّانة كبيرة، أخذ الصغير في قضمها بفرح. استمرّت المرأة في ملءِ الجرار وطفلها منهمك في قضم الرُّمّانة وطرد الذباب عن عينيه المبلّلتيْن بالدموع..

فرغ الصبية من التهام الثمار، فرنا بعضهم إلى المستنقع، والزيتونة الكبيرة، وصنبور المياه.. رأوا الطيور المائيّة وهي تحطّ عند المستنقع، بسيقانها وأعناقها الطويلة، تفتّش عن ديدان العلق المغمورة في الأوحال السوداء الدبقة.. قال أحدهم، وهو يهبّ واقفاً: «هيّا نذهب لقتل الضفادع».. ثمّ تناول رمّانة معفّرة بالتراب وطوّح بها في اتّجاه المستنقع.. اتّجهوا صوبَ المستنقع بخطى متسارعة. في الداحل رأوا رجلاً عجوزاً يعتمر طاقية سعفٍ ذات حوافّ عريضة: كان يخوض المياه بحثاً عن الديدان، تاركاً درّاجته الهوائيّة وقفّةً بها بعض الحاجيات عند حافّة المستنقع.. قذف أحدهم بحجر.. تناثرت المياه الراكدة على الرجل المنهمك في جمع الديدان، فجفلت ضفدعة كانت جاثمة على علبة صفيح.. التفت

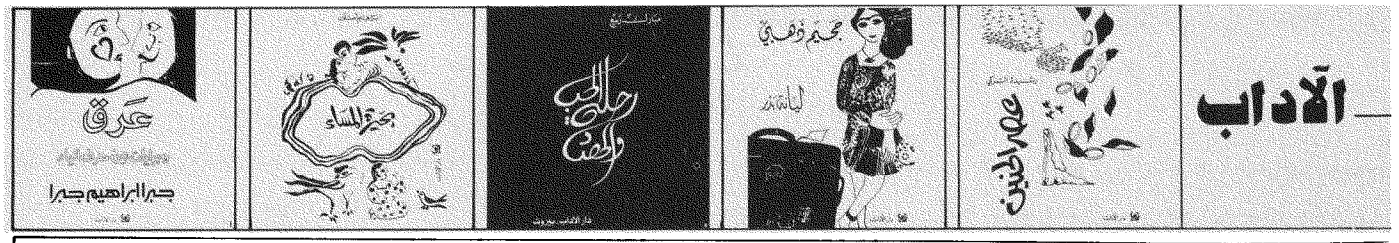

تقتربان أقصى ما يمكن. ضوء المساء المرتبك بوحشة الظّلمة يقف خلف النّافذة، وضبابيّة الدّاخل تخفي معالم وجهين يحتالان فوق وهم الانتظار ولحظات العبور المضني لدقائق الوقت.

كان ما يجري رهاناً.

تحضنها رائحةُ الموت المنبعثة من الخارج. تدفن وجهها بين يديها بحركة تمثيليّة، تنثني بجسدها مقتربة من الرّجل، واللّحن الجنائزيّ يبدّد صمت الموت. تتحسّس أطرافها، حذرةً.

تنهيدة موتورة يطلقها الرّجلُ بوجه المرأة الرّاكدة، يبعثر الكلمات، يجمعها بكفّه، ثمّ يفردها ثانيةً، واحدة واحدة لتسقط بعيداً وتعلق بأشياء المكان.

ـ انهضي واسترجعي مجدَك.

تشير المرأة إلى نهديها الذّابلين: «لا أستطيع الاحتفال بالطفولة».

ولأنّها كانت في غيبوبة الحلم تمضي، فقد أغمضتْ عينيها. تعرف أنّ أحلامها مازالت تسري والقلب وحيد. تراقبه منثنياً بجذعه، عيناه تنهمران بالحيرة.

كانت بحاجةٍ للثرثرة كي لا تشعر بالموت يلفّها.

يمدّ الرّجل كفّه السّميكة، يلملم أوراقه، ينهض من مستنقعه المائي، يتمطّى بجسده الكئيب، يرتفع فوق حدود المرأة وهي تجاوره. يضمّها. تسير به المسافة قصيرة، يزحف ببطء بين مقعده والنّافذة. الأنف حادّ والشّعر قصيرٌ عُقص للخلف دون عناية. يضع كفّه فوق عنقه الصّلب ليتحسّس موضع التّشنُّج. والجبين العريض يوشوش في أذن الصّبيحة المتأخرة كلماتِ عشق. قامته المديدة حناها كلّما أراد أن يخفّف فزعَ المرأة وهي تخبّئ وجهها بالأمل. كانت النّافذة فجوةً تضيق بالوجهين، تخنق الضّوء، تحوك هالات عتمة. يتبادلان نظرات سريعة. تأتيه المرأةُ ببقايا جريدة. يرصدان النّافذة بالعتمة. حينها تدنو المرأة من الرّجل، يضمّها بين ضلوعه، ينحني بجبهته فوق رأسها المتكوّر ليزيدا من تراكم الأشياء داخل الحجرة، وأصوات أنفاسهما تخفت مع اشتداد الظّلمة وارتفاع جلبة الخارج وانعدام الهواء.

بيروت تموز ١٩٩٣